

دراسة تاريخية مع العلامة عبد الرحمن

الثعالبي في رحلته العلمية

د. الصادق دهاش

أستاذ محاضر بجامعة الوادي

لا يمكن اعتبار الجزائريين يتامى التاريخ، بل كانت لهم مساهمات معتبرة عبر العصور وفي مختلف المجالات. وما عبد الرحمن الثعالبي إلا واحدا من هؤلاء الذين كانوا المفاتيح الذهبية لفتح السجل التاريخي والحضاري، لجزائر العلم والصمود والتحدّي والتاريخ.

تعود بنا الذاكرة الجماعية، إلى حوالي ستة قرون خلت، لتلتقي العلامة عبد الرحمن الثعالبي لا نزال بأشد الحاجة إليه، لنتزود بخبرته وعبقريته وزخمه الفكري والأدبي. ولهذا فقط، فإن دراسة وتحليل شخصية الثعالبي جديرة بالنظر، لما لها من أبعاد سياسية وفكرية وإصلاحية. ولا زلنا نعتقد جازمين بدين هذا الرجل علينا، رغم الأقلام التي تناولته وهي مشكورة على ذلك سلفا. وبناء عليه وجب علينا طرح الإشكالية التالية : هل كان عبد الرحمن الثعالبي الأديب والشاعر والفقيه والصوفي، مؤرخا بالمعنى العلمي للكلمة ؟ وهل اتبع منهجية تاريخية سليمة، تتلاءم مع شروط التأريخ العلمي الذي يتوخى الحقيقة ، كل الحقيقة ؟ وهل يمكن اعتبار كتاباته، على الأقل، وثيقة تاريخية معتمدة رغم أن قيمة الكتاب التاريخي تختلف من عصر لآخر، وبحسب متطلبات وتطلعات كل جيل، ولون الكتابة التاريخية، والاتجاهات الفكرية المرغوب فيها ؟

1. عصره السياسي والثقافي

كان القرن التاسع الهجري، الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي، هو العصر التاريخي للعلامة عبد الرحمن الثعالبي، وقد شهد هذا العصر تحولات عميقة داخل الجزائر وخارجها.

فعلى المستوى الداخلي، عايش الثعالبي فترة الصراع المرير الذي شهدته المنطقة المغربية بعد سقوط دولة الموحدين في موقعة حصن العقاب بالأندلس سنة 1212م، وانقسام المغرب العربي إلى دويلات ضعيفة متناحرة هي الدولة الحفصية بتونس (1228هـ / 1534م)، والدولة المرينية بالمغرب (1269هـ / 1550م)، والدولة الزيانية بالجزائر (1235هـ / 1554م). فكلّ دويلة من هذه الدويلات تدعى بأحقيتها في ميراث الدولة الموحّدية، ممّا أدى بالجميع إلى الضعف والانقسام، فكانت نتيجته بداية التحرّش الأسباني والبرتغالي على سواحل شمال أفريقيا، ونظرا لوجود الزيانيين في الوسط بين الحفصيين شرقا والمرينيين غربا، كان عليهم أن يحافظوا على توازنهم طيلة كل هذه المدة.

لم يؤثّر عدم توفر الاستقرار السياسي على الازدهار الاقتصادي والثقافي لدول المنطقة؛ فعلى مستوى حركة الأفكار، فقد تميزت الحياة الفكرية في القرن التاسع الهجري بنشاط ثقافي مستمر وخاصة تلمسان¹ عاصمة الزيانيين، إلى جانب مدن جزائرية أخرى كبجاية والجزائر وعنابة وغيرها.

وقع تنافس علمي وثقافي كبير بين ملوك المغرب العربي، انتهت هذه المنافسة المحمودة إلى تنشيط الصّرح الثقافي بالمعنى الصحيح، كتقريب العلماء وتشجيع البحوث والاختراعات. وبالتالي فإنّ الثقافة لم تتأثّر كثيرا بالتقلبات السياسية العvisية، فعمّت المدارس والكتاتيب والزوايا كمراكز إشعاع فكري وحضاري أصيل. فقدم إلى تلمسان وبجاية طلاب من مختلف الأقطار العربية والإسلامية للتزود من بحور علومها، كما كانت للجزائريين الحرية التامة للتنقل

¹ محمود بوعباد، *جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري (15م)*، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982م، ص. 57.

خارج الجزائر لمواصلة دراستهم. وإذا كانت العلوم الدينية قد نالت الحظ الأوفر عند مشاهير علماء القرن التاسع الهجري، نالت العلوم الأخرى نصيبا من اهتماماتهم¹.

زيادة على كون الثعالبي ينحدر من أسرة ذات حسب ونسب وجاه وعلم وثقافة، فإن المحيط الداخلي كان مساعدا له، وسط يجعل من العلم جهاد في سبيل الله، إلى جانب ظهور الإرهاصات الأولى لظهور بوادر النهضة العربية والإسلامية. انطلاقا من كل ذلك، فإن رحلة الثعالبي العلمية تجاوزت العشرين سنة بكثير في خارج الجزائر، فأتثر الثعالبي وتأثر بعلماء عصره، في الداخل والخارج، فاستفاد من تجارب أهلها، ولم يكن يدرس العلوم مشافهة (رواية) بل دراسة أيضا².

يكون الثعالبي قد أثر تأثيرا بليغا في أتباعه بواسطة ثلاث طرق أساسية: تلاميذه³ وتأليفه⁴ وزاويته⁵. ولا يفوتنا هنا، دون الإشارة إلى است شراء حركة التصوف بشكل جلي وترك بصماتها على نفسية العامة والخاصة، فانتشرت الرؤى⁶

¹ المرجع السابق، ص. 63.

² أبو القاسم سعد الله، *تاريخ الجزائر الثقافي*، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1998، ج. 1، ص. 92.

³ أثر عبد الرحمن الثعالبي في تلامذة كثيرين تتلمذوا عليه بطريقة مباشرة وغير مباشرة، نذكر منهم على سبيل المثال أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي، وأحمد زروق الفاسي، وعلي بن محمد التالوتي، وعيسى بن سلامة البسكري، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي، ومحمد بن مرزوق الكفيف، ومحمد السنوسي الإمام. انظر: محمد بن ميمون، *التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية*، تقديم وتحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص. 335.

⁴ اختلف المؤرخون والكتاب في عدد مؤلفات الثعالبي: فقدرها الدكتور سعد الله أبو القاسم بخمسة عشرة (المرجع السابق، ج 1، ص. 91)، والراجح أنها سبعين مؤلفا، قال بذلك كل من محمد بن ميمون (المصدر السابق، ص. 341) وعبد الرحمان الجيلالي (تاريخ الجزائر العلم، دار الثقافة، لبنان، 1983، ج. 2، ص. 274)، ومحمود بوعيايد (المرجع السابق، ص. 63)، علما بأن أغلبها لا زالت مخطوطات متناثرة هنا وهناك داخل وخارج الجزائر تنتظر من يعيد بعثها من جديد.

⁵ أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج 1، ص. 92.

⁶ كانت لعبد الرحمن الثعالبي عدة رؤى منها ما يقول فيها: "فبينما أنا نائم سبحانه الله الذي لا ينام، بعد أن رأيت إثني عشر حزّاب من كتاب الله عز وجل، ثم صليت أنا وبعض إخواني خمسة

والأحلام والكرامات والأدعية والأذكار¹. فكانت الجزائر يتجاذبها تياران أو راقدان : رافد الأندلس ورافد المشرق بمسحة مغاربية جزائرية أصيلة.

2. مولده ونشأته

ينتمي الرحالة الجزائري الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي² أبو زيد إلى قرية بناحية يسدر³، فولد سنة 780هـ/ 1385 م⁴. والحقيقة هناك تضارب بين المؤرخين، ففي مخطوطه *العلوم الفاخرة* جاء بأن تاريخ وفاة عبد الرحمن الثعالبي كانت في "سنّ ثلاث وستين سنة على الصّحيح وقيل خمس وستين"⁵، وعليه فإنني أرجح تاريخ الوفاة إلى سنة 851هـ/ 1445م. ومما

وعشرين تسليمه. كل ركة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد. خمسين مرة، ثم انطلقت إلى مسجد أبي سفيان وجدّدت الوضوء ونمت. فإذا برجل أبيض شديد البياض وعليه ثياب بيض فدنني منّي وضربني برجله اليمنى" (رؤية سيدي عبد الرحمن الثعالبي، مخطوط رقم 1546، المكتبة الوطنية الجزائرية، ورقة 2-3، وهو مخطوط يتكون من 16 ورقة من الحجم الصغير بدون ذكر الناسخ، ونستبعد أن يكون بخط الثعالبي).

¹ عبد الرحمن الثعالبي، *العلوم الفاخرة في النظر إلى أمور الآخرة*، فصل: "فضل الدعاء والأذكار، فوائد في الأذكار والدعوات، وسائل الحاجات وأدب المناجاة"، مخطوط ج 2 رقم 851، المكتبة الوطنية الجزائرية، ورقة 148.

² نسبة إلى الثعالبة وهم سلالة قدمت الجزائر وكوّنت إمارة الثعالبة بمتيجة، ساندتهم الموحدون وأمروهم سنة 1153م إمارة متيجة ومقاطعة التيطري (المديّة). خربت إمارتهم على يد سلطان الزيانيين أبو حمو الأول سنة 1315م، وبذلك انتهت رئاسة الثعالبة لمتيجة سنة 1378. أنظر: عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ج. 2، ص. 12-22.

³ مدينة جزائرية تقع جنوب شرق مدينة الجزائر العاصمة بحوالي 80 كلم.

⁴ عبد الرحمن الثعالبي، *العلوم الفاخرة*، مصدر سابق، ج. 2، ورقة 38.

⁵ عبد الرحمن الثعالبي، *العلوم الفاخرة*، ج. 2، ورقة 206، بينما أجمعت أغلب المراجع على أن الثعالبي يكون قد عمر بين 88 سنة إلى 90 سنة (أنظر محمد بن ميمون، مرجع سابق، ص. 337؛ عبد الرحمن الجيلالي، نفس المرجع، ج. 2، ص. 275). ويقول أيضا عبد الرحمن الجيلالي أنه إلى غاية 859هـ كان لازال حيا، أي في سن 73 سنة. أنظر أيضا: عادل نويهض، معجم *أعلام الجزائر*، من صدر الإسلام إلى منتصف القرن العشرين، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع. لبنان، 1971، ص. 89. دفن الثعالبي بجبانة الطلبة (مقبرة الثعالبة) بأعالي باب الوادي بالجزائر العاصمة، وهي المقبرة الرئيسية للسلطة العثمانية في الجزائر.

يسند ترجيحنا هذا أن الشيخ عبد الرحمن الثعالبي أحسن بكبر سنه وهو ابن الثلاث وستون سنة. فهو يقول في مخطوطه "العلوم الفاخرة" الجزء الأول ما نصه:

"هذا السيد عبد الرحمن الثعالبي [...] لطف الله به الجيل وصار له المقام والرحيل. لمّا وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا، وبلغت من السنين نحو من ثلاث وستين، وعلمت النفس الحمام منها علم يغيّر، وأيقنت أنّها راحلة في عسكر الراحلين، شرعت في جمع كتاب أجعله تذكرة لنفسي، وأعدّ أنواره لظلم رمسي، في ذكر الموت وما بعده من أمور الآخرة [...] وابتدأت في جمعه وتأليفه في أوائل ذي القعدة من سنة تسع وأربعين وثمان مائة"¹

معلوماتنا شحيحة جدّا حول فترة تعلّمه وطلبه للعلم داخل الجزائر، وإن كان الثعالبي قد أسهم إسهاما كبيرا في التعريف برحلته العلمية، التي قادته إلى كثير من الدول خارج الجزائر. فالأستاذ محمد بن عبد الكريم يعترف بأنّ الثعالبي تلقى تعليمه الأول بمدينة الجزائر العاصمة²، إلّا أنّنا لا نميل إلى هذا الطرح، ونرى بأنّه تلقى تعليمه الأول على يد أبيه خاصة وأنّه من أسرة علم.

3. رحلته العلمية

يمكن تقسيم رحلته العلمية إلى قسمين : داخلية وخارجية أرخها عبد الرحمن الثعالبي شخصيا وأسهب فيها.

أ/ دراسته في بجاية

انتقل الثعالبي من مسقط رأسه بيسر إلى بجاية حاضرة العلم سنة 802هـ/ 1400م، صحبة أبيه فبقي بها قرابة السنة فقط، فتوفّي والده ودفن هناك³. ومن بين

¹ عبد الرحمن الثعالبي، العلوم/الفاخرة، ج. 1، مخطوط رقم 850، ورقة 3، 16، 45، 320.

² محمد بن ميمون، مصدر سابق، ص. 335، ويذهب محمد بن عبد الكريم بعيدا عندما يقول بأنّ الثعالبي تعلّم أيضا في تلمسان قبل توجهه إلى بجاية، وأنّه درس على يد محمد بن مرزوق، وهي غير صحيح إطلاقا (أنظر المرجع نفسه، ص. 335).

³ المرجع السابق، ص. 336. وعن دور بجاية العلمي الحضاري في الماضي، ودورها التاريخي عبر العصور، ودورها في النهضة الأوروبية، أنظر: مولود قاسم نايت بلقاسم، "بجاية الإسلام لقبت أوروبا الرياضات"، بلغة/العروبة والثقافة، عدد 89، سبتمبر-أكتوبر 1985، ص. 28.

أسباب اختياره لبجاية بحكم قربها من مسقط رأسه (يسر) وشهرتها العلمية والدينية والتاريخية. علما أن بجاية كانت قد سبقت الجزائر وتلمسان بوجود مدرسة عبدالرحمن الوغليسي¹. كيف لا يتجه الثعالبي إلى بجاية وهي قبلة العلم والعلماء؟ فيكفيها فخرا أن العلامة عبد الرحمن بن خلدون (ت. 1332هـ / 1406م) قد درس ودرّس واستوزر بها.

انكبّ الثعالبي على الدراسة في بجاية لمدة سبع سنوات، تلقى خلالها علوم جمة على يد علماء أجلاء: أبو الحسن علي بن محمد الليلتي البلبلي، والشيخ أبو القاسم المشدالي، والشيخ أبو مهدي عيسى الليلتي، والفقير السيد المحقق أبو الحسن علي بن عثمان المانجلاتي، وعليه كانت عمدة قراءته، وأخذ علم التجويد عن المحقق أبو الربيع سليمان الزواوي، والشيخ علي بن موسى².

يُضاف إلى هؤلاء شيوخ آخرين درس عنهم الثعالبي، مثل أبو العباس النقاسي. كما درس الثعالبي رفقة زميله الشيخ أبو زكريا يحيى العيدلي³ في بجاية على يد الشيخ أحمد بن إبراهيم البجائي (ت. 840هـ / 1434م)، حتى قال في شأنه الثعالبي: "لو أن رجلا لم يعص الله قط، لكان أحمد بن إبراهيم⁴، كان في ذلك أعلم علماء بجاية آنذاك، وكانت تربطه علاقات حسنة مع السلطان عبد العزيز عزوز المتوكل"⁵.

كان الشيخ عبد الرحمن الثعالبي على علم بما يحيط به من أخبار العلماء الأجلاء، فمثلا جاءه خبر وفاة العلامة أبو عبد الله محمد ابن عرفة المسيلي⁶ وهو

¹ أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج 1، ص. 88.

² أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، تقديم محمد رؤوف القاسمي الحسني، موقع للنشر، الجزائر، 1991، ج. 2، ص. 97.

³ نسبة إلى منطقة بني عيدل، لها حمام سيدي يحيى العيدلي، بدائرة أقبو ولاية بجاية، ولمعرفة يحيى العيدلي، أنظر: أبو القاسم الحفناوي، مرجع سابق، ج 2 ص. 466-463.

⁴ علي أمقران السحنوني، "هذا الشيخ المجهول (الشيخ أبو زكريا يحيى العيدلي) 881/1476م"، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 4، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1988، ص. 39.

⁵ المرجع السابق، ص. 40.

⁶ محمد ابن عرفة الورغمي المسيلي (716-803 هـ / 1315-1399 م) ، كان معاصرا وزميلا للمؤرخ عبد الرحمان ابن خلدون، فهو مدفون بمقبرة الجلاز بتونس. تجاوزت شهرته المحيط

مقيم ببجاية رغم أن سنه كان 17 سنة فقط، كان الثعالبي دقيقا في تأريخه لأشياخه فيقول: "بلغني خبر وفاته (ابن عرفة) وأنا ببجاية، ثم كانت رحلتي إلى تونس بعد موته بست سنوات، فتلقّيت تلاميذته وحضرت مجالسهم"¹.

لم يتطرق الثعالبي إلى ذكر نوعية المناهج الدراسية ومضامينها والمؤلفات التي درسها في بجاية، بينما أطنب ذلك في ذكره للتصانيف التي قرأها خارج الوطن الجزائري، على الأقل في المصادر والمراجع التي اعتمدها هنا.

ب. رحلته إلى تونس

كانت تونس البوابة الأولى لرحلته العلمية الطويلة إلى خارج الجزائر، لعدة أسباب، منها استفاد دراسته الأساسية في بجاية، فأراد المزيد من طلب العلم، فكانت لتونس جامع الزيتونة فهو تحديدا منارة علم وإشعاع فكري وحضاري للطلبة العرب والمسلمين، فكانت هذه الجامعة في تنافس علمي كبير مع نظيراتها القرويين بفاس والأزهر بالقاهرة. ووجود علماء فطاحل أفذاذ بهذه الجامعات تعمل جاهدة على استنهاض الهمم والتأسيس لنهضة علمية وأدبية شاملة تحاول جاهدة على المزج بين الحداثة والأصالة.

ففي هذه الفترة كانت الجزائر الشرقية وبجاية هي جزءا منها خاضعة للدولة الحفصية. دخل الثعالبي تونس في "أواخر 809هـ/ 1405م، وأوائل 810هـ/ 1406م"²، وهي السنة التي توفي بها عبد الرحمان بن خلدون، وكان عمره آنذاك أربعة وعشرون سنة.

بقي عبد الرحمان الثعالبي في تونس أزيد من تسع سنوات، كانت كلها عمل كدّ وجدّ وعمل دؤوب في البحث والتنقيب والتحقيق والتدقيق. إذا صحت مقولة

الأفريقي والمملكة الحفصية إلى أفاق العالم الإسلامي. كانت مدرسته بجامع الزيتونة بتونس وشعارها "الاجتهاد ومحاربة التقليد". من أشهر تلامذته الأبي، والبرزلي، واليسيلي، وأبو حامد بن ظهيرة، والإمام ابن مرزوق الحفيد الجزائري، والمؤرخ ابن الشماخ. أنظر: محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول من القرن السابع الهجري إلى ختام القرن الثالث عشر، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1974، ص. 160-162.

¹ عبد الرحمن الثعالبي، العلوم الفاخرة، مصدر سابق، ج. 1، ورقة 38-39.

² المصدر السابق، ج. 1، ورقة 39.

"مؤرخ التاريخ القديم مؤرخ ملوك لا مؤرخ شعوب"، وهي غير ذلك على الإطلاق، فإن الشيخ عبد الرحمن الثعالبي لم يثبت عنه أنه أرخ للملوك، بل كان يتحاشى الخوض في الأمور السياسية، وآل على نفسه التفرغ للعلم والتبحر فيه. والذين كتب عنهم من العلماء العاملين الذين لا يطلق عليهم "علماء البلاط"، هذه الجدلية القائمة بين العلماء العاملين والحكام، حساسية متجذرة في الفكر الإسلامي، والذي من المفروض أن يكون هناك تعاون بين الاثنين.

وهكذا لم يكن الثعالبي من مؤرخي البلاط. ومن ثم يمكن الوثوق والاطمئنان لما يقوله. وبالتالي فكلامه أكثر توثيقية ومصداقية، رغم أن الحياة الفكرية ليست بالأمر السهل، فيها العديد من المتاهات من ميولات ونزاعات التي تستوجب أخذ الحيلة والحذر.

درس الثعالبي في تونس بجامع الزيتونة على يد جهابذة علاة منهم الشيخ أبو مهدي عيسى الغبريني، يقول عنه الثعالبي هو "واحد زمانه علما ودينا وورعا إليه كانت الرحلة"¹. كما تلقى علمي المعقول والمنقول على يد شيخه، أبو عبد الله محمد بن خلفه الأبيسي، وقد أجازاه في القراءات وكتب له بخط يده بعد رجوع الثعالبي إلى تونس قادما إليها من مصر. ونهل من منابع العلم وحياضها على يد شيوخ آخرين في تونس دائما، هم أبو القاسم البرزلي والشيخ يوسف يعقوب الزغبى.

ج. رحلته إلى المشرق

لم يكتف عبد الرحمان الثعالبي بما تحصل عليه من علوم في بجاية وتونس، وراح يبحث الاستزادة من رحيق المعرفة. فتوجه مباشرة إلى الديار المصرية سنة 817هـ/ 1415م² فالتقى بشيوخها الأفاضل ودرس عنهم. منهم الشيخ أبا عبد الله محمد الجيلالي، فسمع عنه البخاري وقرأ عليه كثير من اختصار إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي وشيء من قراءة الموطأ³. كما درس وهو بمصر على يد الشيخ

¹ عبد الرحمن الثعالبي، العلوم الفاخرة، مصدر سابق، ج. 1 ورقة 38.

² عادل نويهض، مرجع سابق، ص. 89.

³ عبد الرحمن الثعالبي، العلوم الفاخرة، مخطوط، مصدر سابق ج 2 ورقة 39.

أبو عبد الله البساطي، وعلى الشيخ ولي الدين أحمد بن عبد الرحيم العراقي شيخ المحدثين، فقرأ عنه علوم جمة معظمها في علم الحديث، وأجازه بخط يده¹. وأضاف الأستاذ محمد بن عبد الكريم شيوخ آخرين لم يذكرهم الثعالبي في مخطوطه *العلوم الفاخرة*، وهم البلاللي، وأبو عبد الواحد بن إسماعيل الغرياني، وأبو القاسم الحافظ العبدوسي، وأبو محمد عبد الله بن مسعود بن القرشي الشهير "بابن القرشية"².

مكث الثعالبي بمصر حوالي سنة فقط³، ثم انتقل إلى مدينة بورصة⁴، فاستقبل استقبالاً حاراً وأقيمت له زاوية هناك وحُبست عليه⁵. ومن هناك توجه الثعالبي إلى الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج فدرس على بعض شيوخها وأجازه. ومن الحج عاد إلى مصر ومنها إلى تونس، إلا أن الدكتور أبو القاسم سعد الله يرى بأن الثعالبي قد يكون زار أيضاً بغداد ودمشق والقدس⁶.

د . عودته إلى تونس

لم تكن رحلة الثعالبي إلى المشرق طويلة، ربّما لأنها كانت في صياغ ذهابه للحج، رغم أن القاهرة كانت حاضرة العالمين العربي والإسلامي في عصر المماليك يقصدها العلماء من كل حذب وصوب، فيجدون من سلاطينها كل التشجيع والتغريب في العلم والبحث والتأليف، خاصة وأن مصر كانت قد انتقلت إليها الخلافة العباسية.

¹ المرجع السابق، ورقة 39.

² محمد بن ميمون، مصدر سابق، ص. 340.

³ عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ج. 2، ص. 272.

⁴ كانت عاصمة الدولة العثمانية قبل نقلها إلى إسطنبول بعد فتح القسطنطينية سنة 1453م، والذي لم نعتبر لحد الآن على الأقل على رد فعل الثعالبي على هذا الفتح المبين. إن كان لازال حيا إلى هذا التاريخ كما تداول ذكره.

⁵ عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ج. 2، ص. 273.

⁶ أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج. 1، ص. 92.

عند ما رجع الثعالبي إلى تونس سنة 819هـ/ 1417م وهو ابن ثلاث وثلاثون سنة، وجد شيخه أبو مهدي عيسى الغبريني قد توفي وجلس مكانه في التدريس الفقيه أبو عبد الله محمد القلشاني، فلازمه مدة ودرس للمرة الثانية علم الحديث على الشيخ أبو القاسم بن أحمد البرزلي.

كان الثعالبي يتسم بالموضوعية في نقله للأخبار وهو يؤرّخ للحركة العلمية والفكرية. ففي الكثير من المرات كان يقول: "لم يفتني من هذا الكتاب ذاك إلا اليسير".

لقد كان الثعالبي شغوفاً بالعلم متلهفاً له، فكان يملك قابلية واستعداد فطرياً كبيراً لتلقّي علوم شتى، دون كلل ولا ملل، وابتلى من أجله البلاء الحسن. فكان قويّ الحجة متموّقاً في أغلب العلوم وخاصة علم الحديث، فهو آية من آيات العبقرية الجزائرية. لقد تميّز عن أقرانه بالذكاء الوقاد، وقوة العارضة، والبحث والمزج بين العلوم النقلية والعلوم العقلية.

كان الثعالبي راضياً ومعتزاً بالمكانة المرموقة التي وصل إليها، والتي كانت نتيجة عمله المضني والضبط والانضباط الذي تميّز به. لذلك نراه فخوراً بالإنجازات التي حقّقها؛ وفي هذا الصدد يقول: "لم يكن يومئذ في تونس من أعلمه (البرزلي)، يفوقني في علم الحديث [...] وإذا تكلمت فيه أنصتوا وتلقوا ما أرويه بالقبول [...] وكان بعض فضلاء المغرب هناك يقول لي: لما قدمت علينا من المشرق رأيناك آيةً للسانيين في علم الحديث" ¹. وبهذا يكون الثعالبي قد تصدر للتدريس في تونس، وفرض نفسه على أقرانه، وانتزع مكانته العلمية والأدبية بجادة واستحقاق، ونال شهرة كبيرة في تونس وفي باقي دول العلم الإسلامي. لم يكتف الثعالبي بما أخذه من مصر وغيرها من العلوم، بل طبق الحديث النبوي الشريف: "اطلب العلم من المهد إلى اللحد"، فضّل أن يكون متعلّماً، ومعلّماً وعالماً.

¹ عبد الرحمن الثعالبي، العلوم الفاخرة، مخطوط، مصدر سابق، ج 2 ورقة 39.

هـ. إجازات شيوخه له

أ. الشيخ الأبى وإجازته للثعالبي

لذلك جلس للتعلم للمرة الثانية أيضا على يد الشيخ الأبى والذي أجازته بخط يده ما نصه:

"الحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد شرف النبيين أما بعد : يقول الفقير إلى الله، عبد الرحمن بن محمد ابن مخلوف الثعالبي لطف الله به؛ هذا استدعاء التمس به الإذن بالإقراء فيما نذكر من سيدي ومولاي الشيخ الإمام، الحجة، الثقة إمام المحققين الجامع بين حقيقتي المنقول والمعقول، ذو التصانيف الفائقة البارعة والحجج الساطعة اللامعة، سيدنا أبو عبد الله محمد ابن خلفه أعاد الله علينا من بركاته وبركة سلفه [...]"

فأجابه الشيخ الأبى بما يلي :

"الحمد لله ما قاله صاحب الفقيه المجيد الأكرم أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الثعالبي، صحيح فقد آذنت له في اقراء ما ذكر وثوقا بجودة فهمه وجودة قريحته جعلني الله وإياه من العلماء العاملين"¹.

ب. الشيخ محمد بن مرزوق وإجازته للثعالبي:

قدم إلى تونس سنة 819هـ/1417م، قاصدا الحج إلى بيت الله الحرام، الشيخ أبو عبد الله محمد بن مرزوق²، التقى به الثعالبي قرابة السنة، فأخذ عنه

¹ المرجع السابق، ورقة 40.

² ابن مرزوق الحفيد 766-842هـ/1364-1439م، فهو حفيد العلامة الذائع الصيت شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ، بن أبي بكر محمد بن مرزوق (ت. 781 هـ / 1379م). درس ابن مرزوق الحفيد على يد علماء عظام من أمثال ابن خلدون عبد الرحمان، والفيروز بادي، ومحب الدين بن هشام، اشتهر ابن مرزوق الحفيد بسعة العلم والاطلاع والتحقيق والذكاء والخطابة. أنظر: عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ج. 2، ص. 213؛ وبالنسبة للجد ص. 131-134. له وثيقة تحبیس كتبها بخط يده لتونسي من مدينة توزر لحبس بستان له؛ للمزيد أنظر: أبو القاسم

كثيرا من الموطأ بقراءة الفقيه حفص عمر بن الشيخ أبي عبد الله القلشاني، فأخذ عنه الثعالبي أيضا الأربعين حديثا التي جمعها أبوزكريا يحيى النووي، فقرأها عليه قراءة فهم وتفهم. ونظرا لسمعة الشيخ محمد بن مرزوق وتأثيره في الشيخ الثعالبي حتى قال فيه هذا الأخير: "لا أعلم له نظيرا في ذلك في وقته، فيما علمت وسمعت عليه."¹

وكان الثعالبي قد كتب مقدمة مسهبة في حق شيوخه، فاعتبرهم بمثابة أنجم يهتدي بهم وأعلام يقتفي أثرهم الحيارى تقتضب منها ما قوله: "سيدي وشيخي، الإمام الحبر الهمام، حجة أهل الفضل في وقتنا وخاتمتهم، ورحلة النقد وخلصتهم، ورئيس المحققين وقادتهم، السيد الكبير، والذهب الأبريز، والعلم الذي نصبه التمييز، بن البيت الكبير. والفلك الأثير، ومعدن الفضل الكبير، سيدي أبوعبد الله محمد، الإمام الجليل، الأوحى الأصيل، جمال الفضلاء، سليل الأولياء، أبي العباس أحمد، بن العالم الكبير الشهير، تاج المحدثين، وقوة المحققين، أبي عبد الله محمد ابن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق حفظه الله"².

لقد أجازه ابن مرزوق كل مروياته من مسموع ومقروء ومجاز ومؤلف من فقه، وحديث وعلم ولغة، وصرف ونحو، وبيان وأصول، ومعقول ومنقول، من منظوم ومنثور وتصوف وأدب، وهامي صيغة الإجازة التي كتبها ابن مرزوق بيده للثعالبي قال فيها: "قد أجزت سيدي الشيخ الأجل، الفقيه الأنبل، المشارك الأحفل، المحدث الرحلة الأفضل، الحاج الصالح المبارك الأكمل، أبا زيد عبد الرحمن الثعالبي؛ أجيزه إجازة مطلقة كاملة عامة، نفعتني الله وإياه بما علمنا، قال ذلك وكتبه، محمد بن أحمد، ابن محمد، بن أحمد، بن محمد بن أبي بكر، محمد بن مرزوق العجيسي التلمساني."³

سعد الله، *أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر*، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986، ج. 2، ص. 351. 356.

¹ عبد الرحمن الثعالبي، *العلوم الفاخرة*، مصدر سابق، ج. 2، ورقة 40.

² وهناك أيضا ابن بكر بن خير الأموي الإشبيلي.

³ عبد الرحمن الثعالبي، *العلوم الفاخرة*، مصدر سابق، ج. 2، ورقة 41.

كانت هذه الإجازة، في أواسط جمادي الثانية، عام تسعة عشر وثمان مائة 819هـ/ 1417م رغم أن السيد عبد الرحمن الثعالبي يعدّ قطب مدرسة التصوف والزهد، إلا أنه جمع بين العلم والزهد وهي ازدواجية يصعب توفرها عند الكثيرين. وتظهر منهجية الثعالبي في ذكر مصادره وموقفه منها في إيجاز غير مخل، وإطناب غير ممل، فهو صورة لحلقة وصل بين المناهج القديمة وطرق البحث الحديثة.

ج. الشيخ ابن الكويك وإجازته للثعالبي

يواصل الثعالبي تأريخه لحياة شيخه ابن مرزوق في سابقة خطيرة لم يسبقه فيها أحد، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على مدى الإعجاب الذي يكنه التلميذ لأستاذه وعلاقة التأثير والتأثر بين الاثنين بادية للعيان. لذلك يقول الثعالبي بأن ابن مرزوق ذهب إلى الحج وأثناء نزوله بمصر التقى فيها بالشيخ محمد بن عبد اللطيف بن الكويك، والذي أجاز ابن مرزوق بجملة من التصانيف، رغم أن الثعالبي يرى بأنه لم يكن له شعور بهذا الشيخ وهو بمصر، وبالتالي فإنه خير عميم كان يحمله الشيخ بن الكويك .

وإن كان الثعالبي، قد استفاد منه عن طريق شيخه ابن مرزوق الذي أجازته كل تلك التصانيف التي تحصل عليها هو الآخر عن طريق الإجازة،

لقد تحصل الثعالبي على عدة إجازات في عدة مرات من طرف شيخه ابن مرزوق الحفيد، كانت آخرها في أواخر رجب عام عشرين وثمان مائة 820هـ/ 1422م¹. لذلك ترى الثعالبي يواصل ذكر التأليف التي أجازها فيها الشيخ ابن مرزوق وهي التي أجازها فيها العلامة المصري ابن الكويك، ومن هذه الكتب "كتاب سيبويه" والمغرب لابن عصفور، و"فصول" ابن معطي، و"الفتية"، و"العمدة" لابن مالك، فمن كتب الحنفية: القدوري، و"مختار الفتاوى" وشرحه لمؤلفه، و"المنظومة" و"الهداية"، ومن أصول الحنفية "الروضة" لابن قدامة. ومن

¹ توفي سنة 899هـ/ 1439م، فقيها تلمسانيا، مؤلف بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب، ومحصل المقاصد مما به تعتبر العقائد في علم الكلام، أنظر: المرجع السابق، ص. 226.

كتب المالكية : "الرسالة" لابن أبي زيد، و"ال تلقين"، وابن الحاجب الفرعي، ومن أصول المالكية، أصول ابن الحاجب، ومن كتب الحنابلة: "المحرر" و"المقنع"، ومن أصول الحنفية "المنار"، وكتب الشافعية : "التبیه" و"المنهاج" و"الحاوي"، ومن أصول الشافعية، البيضاوي و"جمع الجوامع" للمسبكي¹. يبدو أن الثعالبي لم يكن يعاني من مشكل المذهبية، فكان متفتحا على كل المذاهب والتيارات الدينية والفكرية والفلسفية، وهذا يعود إلى اتساع اطلاعه وإدراكه بخطورة التطاحن المذهبي والطائفي الذي نحر جسم الأمة الإسلامية على مدار قرون ولا تزال .

فأغلب هذه الكتب والعلوم التي تحصل عليها الثعالبي بالإجازة فهي إما أسانيد، أو معاجم، أو شروح ورسائل، وسير وتصوف، ومختصرات، وكتب الحديث، وأدب ولغة. فأغلبها مصادر فقهية، ولكنها تحمل بين طياتها البعد التاريخي والحضاري الهام، والتي يمكن أن ترقى إلى الوثيقة التاريخية إذا توفرت على باحث ماهر. وإن كان الثعالبي قد أورد لنا كمًا هائلًا من التوثيق، إلا أنها في الغالب كانت بدون تعليل ولا تعليق، وهي صفة اكتسبها محدثنا على منهج المؤرخين القدماء، ولذلك حاولت بدوري ما استطعت صياغة البحث بالتحليل والاستنباط والنقد والمقارنة حتى يكون لهذا العمل بعدا علميا أكاديميا.

ومما يلاحظ على أغلب تأليف عصر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي غلبة القسم الأدبي فيها على القسم التاريخي، فهو تاريخ للأدب أكثر منه تاريخ وطني وسياسي واقتصادي واجتماعي. وعليه فإن الثقافة الشعبية والأدب بمفهومه الواسع من شعر ونثر يعدّان رافدان هامان للتاريخ. فهي مصادر حقيقية لا يستغنى عنها أيّ مؤرخ ماضيا وحاضرا ومستقبلا. والشاهد عندنا أن الثعالبي قد أطلع على بعض كتب التاريخ على قلائتها، وحاول الاستفادة منها في تأريخه للحركة العلمية والثقافية.

كان الثعالبي من القلائل الذين حاولوا الجمع بين الأدب والتاريخ، فكان يحاول استعمال المنهج التاريخي المبني على الشك والتدقيق والتحقيق والتمحيص وعدم

¹ عبد الرحمن الثعالبي، العلوم/ الفاخرة، مصدر سابق، ج. 2، ورقة 42.

إصدار الأحكام إلا بعد الإحاطة بالمسألة من كل وجوها. لهذا يقول في مخطوطه روضة الأنوار ونزهة الأخيار¹:

"إني جمعت لنفسي ولك (القارئ) هذا الكتاب جواهر ونفائس اخترتها من كتب نفيسة، كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى. إذ كنتُ في أشاء مطالعتي، كلما مررت بروضة يانقة، وثمره يانعة، تناولت من ثمارها وفهمت ما استحسنته أنوارها وأزهارها. وتحرّيتُ نقلها بألفاظها معزوة لأربابها، حتى اجتمع لي من ذلك جملة صالحة في أنواع وفنون من العلوم كثيرة، كلّها ممّا يهزّ القلوب، ولم أقصر في ترتيبها. بل ثبتت في جملة الكتاب محاسنها، ورصّعت من خلالها وأصنافه جواهرها، وجعلتُ فصول الكتاب روضات هي غنيمة العارفين، ورياض الصالحين."²

كان الثعالبي على درجة عالية من الصبر والانضباط في طلب العلم رغم تقدم العمر به، فكان مقتنعا بما يسمى بـ "الجهاد العلمي"، فمفنيا زهرة شبابه في خدمة العلم والثقافة والأمة. فلقد تحصل على إجازات كثيرة ومتباعدة زمانا ومكانا. متنوّعة العلوم والفنون، فلم يكن الثعالبي جاهلا أو متجاهلا، لما يدور في عصره

¹ مخطوط مكتوب بخط عربي مغربي جميل، عناوينه واضحة بأبوابه وفصوله مكتوبة بالألوان الأحمر، يقول الثعالبي عن هذا المخطوط: "من حصل عليه مع تفسيره المسمى الجواهر الحسان في تفسير القرآن فقد حصل على خزانة من العلم عظيمة". يبدو أن الثعالبي كان راضيا جدا بما حققه من جهد كبير لإخراج هذين المخطوطين إلى القراء، لأنه فعلا كان عصارة جهده الفكري طوال سنين من البحث والتقصي، مجموع أوراق هذا المخطوط 184 ورقة من الحجم الكبير، ومن بعض فصوله لمن يهمله الأمر: فصل في جملة من الأذكار والدعوات وهي أربعون حديثا ضمن كتاب سلاح المؤمن للشيخ تقي الدين أبي الفتح محمد بن علي برهمان، وفصل في نبذ مختاره في بعض مناقب مالك ومناقب جملة من أصحابه ومن بعدهم من أهل مذهبه، يزيد عددهم عن مائة فاضل مختصرة من المدارك لأبي الفضل عياض وفصل في فضل الموطأ، وفصل من أحياء علوم الدين. مع ملاحظة خطبة غياب اسم الناسخ ولقبه وتاريخ النسخ، وقد يكون من نسخ صاحبه.

² عبد الرحمن الثعالبي، روضة الأنوار ونزهة الأخيار، مخطوط ج 1 رقم 884، المكتبة الوطنية الجزائرية، ورقة 1 - 2.

من علوم ومعارف غير أدبية وإنسانية، بل كان على معرفة بعلم الطب¹، وربما يقصد بقصد الطبّ بالأعشاب، إلا أنه كان منتشرًا بين المسلمين وإن قلَّ الاهتمام به في عصرنا نحن. ومن أهمّ المصادر والمراجع الأساسية لعلم الطب آنذاك حسب قول الثعالبي، كتاب "القانون" لابن سينا وكتب الرازي. ويرى بأنّ الطبّ علم سهل وحكمته في المزاولة والتدريب، وهو الشّطر الأهم في مهنة الطبّ، ويرى بضرورة إسرار الفرد المسلم على نوع من الثقافة الصحية والتي هي جزء من حياته.

ج. الشيخ أبو زرعة وإجازته للثعالبي

ومن الذين أجازوا الثعالبي وهو بتونس في مرحلته الثانية، وهي أخصب مرحلة في رحلته العلمية (فيها تعلم وأنتج)، الشيخ أبو زرعة ولي الدين العراقي. أجازته جميع مروياته ومنقولاته على تباين أجناسها واختلاف أنواعها. وكتب ابن زرعة العراقي بخط يده يجيز فيه تلميذه عبد الرحمن الثعالبي، قال فيه:

"فقد أجزت للشيخ الصالح، الفاضل الكامل، المحرر المحصل،
الرحال أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي [...]
أجزت له كل مسموعاتي ومحضوراتي ومجازاتي ومقولاتي، وأنا
بريء من الغلط والتحريف، وذلك يوم عاشوراء سنة سبع عشر وثمان
مائة"².

¹ عبد الرحمن الثعالبي، *العلوم الفاخرة*، مصدر سابق، ج. 2 ورقة 33، ومن أطباء تلمسان في هذه الفترة محمد بن علي بن قشوش.

² عبد الرحمن الثعالبي، *العلوم الفاخرة*، مصدر سابق، ج. 2، ورقة 42.

كان الشيخ عبد الرحمن الثعالبي مكتبة متقلة، فهو موسوعة زمانه، أمّد التاريخ والمؤرخين بمعلومات قيمة، يتعدّد العثور عليها في غير تأليفه الكثرة. فلم يكن يتلقى العلم فقط بل يدرّس ويبحث ويؤلف، وهو عمل شاق ومضني، خاصة وأنه كان في عصر عدم توفر الطباعة. لقد ضحى بماله وأولاده ووقته وأحبابه من أجل التفرغ للعلم والصبر على مشاق السفر والبعد عن الأهل والأدقاء. لقد أضاف الثعالبي شيئاً ثميناً للفكر الإسلامي، بما خلف لنا من أمّهات المصادر في مختلف العلوم رغم أننا لم نطلع على كلها، فهي مبعثرة بين مكتبات العالم.

كيف لا يكون كذلك وأنا أحصيت له قرابة المئتان كتاب قرأها عن طريق الإجازة ونرى أن العدد قليل، لأنها أرقام جزئية بحكم عدم اطلاعنا على كل إنتاجه. كانت للثعالبي قدرة كبيرة على الكتابة والتأليف في زمن قلّ فيه المنتجون لإخلاد أغلبهم إلى الراحة، وتركهم لواقعهم المرّ، وفرارهم منه إلى الأمور السهلة.

من خلال تأليفه يكون الثعالبي قد أعطى لنا صورة كاملة عن العلوم المتداولة آنذاك والتي كانت أغلبها في العلوم الدينية كالفقه والتفسير والعقائد والتصوف. إلى جانب اللغة والأدب كعلوم البلاغة والشعر والنثر وغيرها من العلوم اللغوية، كانت كتبه تحظى بالقبول والاستحسان والتقدير بين أوساط الأدباء والعلماء في حياته قبل مماته. وكان معروفاً ومتداولاً بعد مماته وإن كان قد طغى عليه الزهد والتصوف، وأغلب الناس يعرفونه من هذه الزاوية فقط.

ومن أهم القيم التي يتوخاها أي مؤرخ والتي لمسناها عند الثعالبي، الصدق والأمانة في نقل الخبر، والتحقّق منه، والتدقيق فيما يكتب. كان أكثر دقّة وتفصيلاً في إيراد المعلومات، خاصة وأن مدرسة التراجم كانت هي المدرسة التاريخية السائد في عصره.

كان الثعالبي يحاول أن يربط تأليفه بالواقع المرّ ويجيب على انشغالاته بأسلوب رصين، ومواضيع طريفة وجديدة في مضامينها. فكان الثعالبي يبحث في مختلف المصادر ولا ييخل بها على القارئ، فيزوده بها، بل كان يميّز بين الوثائق المكتوبة والرواية الشفوية وهي قِمة عمل المؤرخين، وحاول أن لا يكون جماعة فقط بل يخضع كل ذلك إلى النّقد.

من أشهر مؤلفاته وأكثرها قيمة شهادة صاحبها *الجواهر الحسان* في تفسير القرآن¹، في التفسير، وهو مذيلا بمعجم لغوي شرح غريبه. وله أيضا كتاب *الأربعون حديثا في الوعد، والأنوار في معجزات المختار*²، و*تحفة الإخوان في إعراب آيات القرآن*³ وهو في إعراب القرآن، و*جامع الأمهات في أحكام العبادات والجامع الكبير* الذي وضعه ملحقا بشرحه على مختصر ابن الحاجب الفرعي⁴، و*جامع الفوائد*⁵، و*جامع الخيرات*، و*جامع الهمم في أخبار الأمم في جزئين*⁶، و*الجامع الفرعي والدرر الفائقة*⁷ والذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز، وروضة الأنوار ونزهة

¹ هو اختصار لتفسير ابن عطية الغرناطي. كتبه صاحبه سنة 833 هـ/ 1430م، طبع بالجزائر في أربعة أجزاء، انظر فرقة بحث منهم ناصر الدين سعيدوني، معجم مشاهير المغاربة، جامعة الجزائر 1995/ ص. 125، طبع الجزء الأول منه بمطبعة جوردان 1905م، أما الثلاثة الأجزاء الباقية فطُبعت بالمطبعة الثعالبية سنة 1907م، وقيل في مصادر أخرى نشره محمد بن مصطفى بن خوجة (1909-1910)، أنظر: إسماعيل العربي، *الدراسات العربية في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986*، ص. 70.

² جاءت صيغته أيضا كتاب *الأنوار في آيات النبي المختار*، أنظر عادل نويهض، مرجع سابق، ص. 89

³ محمد بن ميمون، مصدر سابق، ص. 341. وجاءت كالتالي: *تحفة الإخوان في أعراب بعض آيات من القرآن الكريم*، أنظر: عادل نويهض، مرجع سابق، ص. 89؛ عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ج. 2، ص. 274.

⁴ عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق ج 2 ص 274.

⁵ محمد بن ميمون، مصدر سابق، ص. 342.

⁶ عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ج. 2، ص. 274، كانت تحصل فائدة كبيرة لمعالجة هذا الموضوع لو عثرت على هذا المصدر الهام في التاريخ.

⁷ عبد الرحمن الثعالبي، *الدرر الفائقة*، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 2780، ناسخه السيد محمد بن زيان بن عيسى الزغيش بتاريخ 1820.

الأخيار، ورياض الصالحين¹، وشرح عيون مسائل المدونة، ورياض الأنس²، وإرشاد السالك وهو صغير الحجم، والإرشاد في مصالح العباد³، والأذكار والدعوات، والدرر اللوامع في قراءة نافع، والدرر الملتقطة، والأنوار المضيئة في الجمع بين الشريعة والحقيقة، والرؤى، وإلتقاط الدرر، والرفائق، وشرح على مختصر ابن الحاجب الفرعي في جزئين⁴، وشرح مختصر خليل بن إسحاق، وشرح المختار من الجوامع في محاذات الدرر اللوامع (طبع بالمطبعة الثعالبية سنة 1324هـ/ 1906م بالجزائر العاصمة⁵)، والعلوم الفاخرة في أحوال الآخرة⁶، ونور الأنوار ومصباح الظلام، والفهرسة⁷ جمع فيها أسانيده ومشائخه أطلق عليها اسم غنية الواحد وبغية الطالب، والنصائح، وشرح علي ابن هارون، وشرح على غرار ابن عرفة، ومختصر الفهرسة، والرحلة⁸، والعقد النفيس⁹.

هذا قليل من كثير مما خلفه الثعالبي، فهو رجل مؤلف (كثير التأليف) ندب نفسه فداء للجزائر خاصة والعالم الإسلامي عامة، حقا كان رجلا مجتهدا في زمن قلّ فيه المجتهدون. فما أحوجنا إلى تأليفه التي ضاعت وضاع معها كنز عظيم كان يمكن أن يكون لها أثرا حميدا في تقويم مسارنا وتصويب انحرافاتنا.

¹ عبد الرحمن الثعالبي، رياض الصالحين، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم 883، عنوانه بالكامل رياض الصالحين وتحفة المتقين، لم يذكر فيه اسم ولقب الناسخ وكان تاريخ نسخه سنة 1835 م، ومن بعض الأبواب التي عالجه: فيما ينبغي أن يكون عليه الإنسان في ليلة ونهاره، الدعاء والذكر على النبي، فيما يقوله الإنسان عند الصباح والمساء، به 207 ورقة وهو في جزآن.

² عادل نويهض، مرجع سابق، ص. 89.

³ عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ج. 2، ص. 274.

⁴ المرجع نفسه، ج. 2، ص. 274.

⁵ نفس المرجع، ج. 2، ص. 274.

⁶ عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ج. 2، ص. 275، الأصح هو العلوم الفاخرة في النظر إلى الآخرة، وهو في جزآن مطبوع من طرف المطبعة الحامدية المصرية سنة 1317هـ/ 1904م.

⁷ ورقمه بالمكتبة الوطنية الجزائرية هو 1450.

⁸ عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ج. 2، ص. 274.

⁹ محمد بن ميمون، مصدر سابق، ص. 342.

وبعد كل هذا يمكن أن نقول بأن الشيخ عبد الرحمن الثعالبي كان موسوعة، عالما بعلمي المعقول والمنقول، مترجم يتسم بالحفظ والذكاء فجمع بينهما، كما كان من القلائل الذين استثمروا أوقاتهم في الجد والاجتهاد نافعا ومنفعًا، مؤثرا ومتأثرا قام بتصحيح كثير من المفاهيم والقضايا الخطيرة التي كانت تمر بها الأمة الإسلامية.